محمود سليمان الظاظا

مواسم تعبرني بلا إستئذان

شعر

مواسم تعبرني بلا استئذان

محمود سليمان الظاظا

شعر

مقدمة

في هذا الديوان، مواسم تعبرني بلا استئذان، أمدّ يدي إلى تلك اللحظات التي فاجأتني مثل مطرٍ هابطٍ من غيمةٍ غريبة، وإلى تلك الرياح التي هزّت قلبي دون أن تمنحني وقتاً للاستعداد.

فأنا ابنُ المواسم التي مرّت عليّ، وتركت في داخلي أثراً لا يُمحى، وندبةً لا تُرى، وصوتاً لا يصمت.

هنا، تتداخل الفصول في روحي كما تتداخل القصائد في هذا الكتاب؛

ربيعٌ يفتح نوافذ الضوء، وصيفٌ يحرق ما تراكم في الذاكرة، وخريفٌ يعلّمني معنى السقوط، وشتاءٌ يدفن في صدري أسراراً لا تذوب.

لم أكتب هذه الصفحات لأروي ما جرى فقط، بل لأعيد ترتيب عالمي،

فالشعر عندي ليس زخرفاً لغوياً، بل اعترافٌ طويل، ومصالحةٌ مؤجلة، وصرخةٌ حين يضيق الصمت.

ولذلك، جئتكم بهذه القصائد كما هي:

عفوية، مشتعلة، مبلّلة بالأحلام، تحمل شيئاً مني وربما شيئاً منكم أيضاً.

هذا الديوان رحلةٌ في المواسم التي عبرتني...

وفي المواسم التي ما زالت تعبر.

1_

لأجلكِ وحدكِ

لأجلكِ وحدكِ،

يا سموّ الأميرةِ الحسناء،

ليونور دي بوربون،

ملكةَ إسبانيا.

أحببتُ الديارَ والأوطان،

وعشقتُ قهوةً عربيةً سمراء

تتيهُ بغيابكِ،

وتحلو بها السهرةُ إن حضرتِ.

لا لشهريار،

ولا لتاجِ الأميرات،

ولا للمسكِ المخبَّأ

في قواريرِ الزمنِ العتيق—

عندما تكونين أنتِ

أولى القصائدِ

وآخرَها.

2

بياضُ الثلج

صباحُ الخير،

عزيزتي…

سموَّ الأميرةِ الحسناء

ليونور دي بوربون،

ملكةَ إسبانيا.

أدركُ أنَّ الجيادَ

بلا براري،

ولا مواسم،

ولا ربيع...

وأنَّ نضارةَ وجهكِ الناعمِ الجميل

انتزعتْ من بياضِ الثلج نقاءَه،

ومن ماسِ القصيدةِ وهجَها،

ومن أغاني السنونو خفَّتَها،

ومن مطرِ المهرجانات فرحَه،

ومن ابتسامةِ الوردِ الجوريِّ حُمَّاه،

ومن عطرِ الياسمين رقَّتَه،

ومن طعمِ العسل حلاوتَه،

ومن رِقَّةِ الزنبق نقاءَه،

ومن بنفسجِ أيّار لونه ولغته.

وكتبت للعصافير

أغانيَ حبٍّ جديدة...

لكنَّ كلَّ ذلك

كان بين كفَّيْكِ الجميلتين،

أنتِ وحدكِ.

التوقيع: شاعر

محمود سليمان الظاظا

3_

معزوفة الشعر

حين عزفَ الشعرُ

آخرَ معزوفتِه على المسرح،

كانت موسيقاه الأخيرة:

أنتِ...

ثم أنتِ...

ثم أنتِ...

ثم أنتِ.

4

لحن الحياة

حسناً...

مجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا...

بيروتُ تعزفُ

لحنَ الحياةِ

من جديد،

وبقلبٍ مفعَمٍ بالحياةِ

والأمل...

مجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا...

5

خيانةٌ وقتْلٌ

خانوك... فقتلوك.

يا سماحةَ الأمين،

يا من كنتَ مخلصًا

لأرضِك،

لشعبِك،

في العام السابق...

عامُ الخذلان،

عامُ الغدر.

يا شيخَ الرجاء،

يا من حملتَ الراية،

أنتَ...

ضحيةُ خيانةٍ

وقتلٍ.

6—

عبدُ المال

صدقَ النبيُّ محمدٌ

صلى الله عليه وسلم،

حين قال:

تعسَ عبدُ المال،

تعسَ عبدُ الدرهم،

تعسَ عبدُ الدينار.

فما هلكتِ القلوبُ

إلا حين استعبَدَها الذهب،

ولا ضلَّتِ النفوسُ

إلا حين اتّخذت المالَ إلهًا.

7

حامات

في حامات،

وُلدتْ قصيدةٌ لبنانيةٌ

عشوائيةُ الملامح،

تفلتتْ من بين أصابع الريح،

واخترقت البحرَ

الأبيضَ المتوسّط،

لتَرْسو — بلا ميعاد —

على شاطئِ جزيرةِ قبرص.

عشوائيةٌ…

بكل ما للكلمةِ

من معنى.

8

سماء زغرتا

هذه القصيدةُ

عنيفةٌ... عشوائية،

حلّقت في سماءِ زغرتا،

تشقُّ الريحَ

كطائرٍ جموح،

...ثم مضت

حتى استقرّت

في الجزرِ اليونانية،

عنيفةً...

عشوائيةً

للغاية.

9

أكثر من ذلك

لا تتوقع منها أكثر من ذلك،

كل ما في الأمر،

أنها قصيدة حب

موجهة إلى قائدة إيقاع

الموسيقى الروسية،

وليست قاعدة صواريخ

تطلق من القنطاري

إلى الجليل الأعلى،

هكذا ببساطة.

10

جار مزعج

قد تكره المنزل الذي تسكنه،

المبنى،

الحي،

وحتى الشارع بأكمله،

كل ذلك...

لأجل جار مزعج

لا يطاق بتاتًا.

11

جمالُها الإسبانيُّ النبيل

كان يعرّي الماسَ من تيجانِه،

ويكتبُ للعصافيرِ

أغانيَ الحبِّ الأولى.

قمرُ الشوقِ

محطّةٌ أخرى للهوى،

تتعثرُ عندَها

دقّاتُ القلب،

ويورقُ الرخامُ

عناقيدَ مواسمَ

تتدلى في حضرةٍ فاتنة.

قمرٌ يَكْحَلُ الليلَ

لعينيها الجميلتين،

ويضعُ قبلتَهُ

الخجولة

على خدّيها المتورّدين

مثلَ التفّاح...

ثم يرحل.

12

الانتكاسات الكبرى

سؤالٌ يلازمني دائماً،

كشاعرٍ لبنانيٍّ يتأمّل تاريخ هذا الوطن:

عندما تأسّس لبنان...

على أيّ أساسٍ تأسّس؟

فمنذ اللحظة الأولى،

والبلد بلا ماءٍ ولا كهرباء،

بلا خدماتٍ صحيّة،

بلا أمنٍ أو أمان،

وبلا شبكاتِ صرفٍ صحيّ محترمة.

كلّما هطل المطر،

تطفح الشوارع بمياه الصرف الصحي،

تجتاح المنازل،

تغرق السيارات،

تتسلّل إلى المحال التجارية،

وربما تدخل بعض المؤسسات

العامة والخاصّة...

كأننا نغرق في كلّ شتاء من جديد.

لا شكّ أنّ لبنان تعرّض

لانتكاساتٍ كبرى،

من الحرب الأهليّة

التي أنهكت روحه،

وتجاوزت خسائرُها الاقتصاديّة

– المئتي مليار دولار – كما قرأتُ

إلى انتكاساتٍ تلتها،

كاغتيال الرئيس الشهيد

رفيق الحريري عام 2005،

وحرب تموز 2006،

وغيرها من الضربات

التي أرهقت الاقتصاد

وأضعفت بنية الدولة.

لكن…

– إن كنّا اليوم نمتلكُ دولةً فاعلة

– كما يقال

فقد آن الأوان

للشروع فوراً في معالجة

الملفّات الأساسية للحياة:

الماء، الكهرباء،

الخدمات،

السكن،

والبنى التحتيّة.

آن الأوان

لنتخلّص تدريجياً من هذه الأزمات،

حتّى نتجاوزها بالكامل،

خصوصاً ونحن نقف على عتبة

عامٍ جديد…

2026.

هكذا أرى الأمر.

13

عاصفةٌ رمليةٌ صفراء

هوجاء،

تجثمُ على صدرِ القصيدة،

فتهوي المفردات

وتتبعثرُ الحروف،

وتتناثرُ المعاني

والألفاظُ والكلمات،

بل تتطايرُ الجُملُ

والنقاطُ والفواصل…

كأنها ريحٌ شرقيةٌ

تكنسُ اللغةَ من دفاترها،

وتقذفُها إلى مدنٍ بعيدة،

وقاراتٍ مجهولة،

وإلى جهاتٍ

لم يكتشفها العالمُ بعد.

14

ْ

صرخةَ احتجاجٍ مدوّية

كان يرفعها بعضُ أبناءِ بلادِ جبيل

في وجهِ رجالِ الإقطاعِ الجشعين،

والحكّامِ الجائرين،

وبعضِ رجالِ الدينِ

الذين غلبَ عليهم التسييسُ والهوى.

صرخةٌ لا يزالُ صداها

يثقبُ أذنَ الحارة،

كلما غرقَ الجبيليّون في النوم،

كأنها تذكيرٌ دائمٌ

بوجعٍ لم يُشفَ بعد،

وبحقٍّ لم يُستردّ.

15

من المحيط إلى الخليج

هو الشعارُ الذي ترفعه

إحدى قصائدي المغامِرة

في هذه اللحظة،

قصيدةٌ تمتدُّ

بجسارةِ المسافةِ كلّها،

وتختبرُ اتّساعَ اللغة

ورحابةَ الأرض

في آنٍ واحد.

16

الشيخ بيار الجميّل

عندما كنتُ فتى صغيراً،

في الثامنة أو التاسعة من عمري،

كنا نعبر أحياناً بالسيارة

من المنطقة الغربية كما كانوا يسمّونها

أيام الحرب الأهلية،

إلى المنطقة الشرقية،

أو بالعكس.

وأذكر جيداً تلك العبورَاتِ الليلية،

وعندما كنّا نمرّ عند جسر الفيات

قادمين من الغرب باتجاه الشرق،

كانت تلوح لي صورةٌ ضخمة،

بورتريه طويل يمتدّ

على ارتفاع مبنى كامل.

رجلٌ متقدّم في السن،

ببدلة رسمية وربطة عنق،

وجهٌ طويل،

ونظرةٌ ثاقبة تشقّ العتمة.

كنت أحدّق إليه،

وأنا طفل لا يعرف اسمه،

ولا منصبه،

ولا سبب وجود صورته

على ذلك المبنى الشاهق،

ولا ما الفائدة من رفعها هناك.

ومع مرور الزمن،

وحين كبرت قليلاً،

عرفت أن ذلك الرجل

هو الشيخ بيار الجميّل.

لكنّ الصورة بقيت،

حتى اليوم،

محفورةً في مخيّلتي،

وفي عقلي الطفوليّ القديم،

ربما لأنها كانت شاهدةً

على أكثر المعارك دموية

بين المسلمين والمسيحيين آنذاك،

في سنوات الثمانينات…

بين 1982 و1985.

هكذا بقيت…

صورةٌ لا تُمحى.

17

ابنةُ يومِها؟

لا…

فهذه القصيدةُ ليست ابنةَ يومِها،

بل شاهدةٌ قديمةٌ

على سقوطِ روما

حجراً فوقَ حجر،

وعلى زمنٍ تهشّم

بين سطورها.

18

مورغان أورتاغوس

أُعجِبَ الشيطانُ كثيراً،

وبدهشةٍ لا تُصدَّق،

باقتراحِ تلك الحرباءِ السامّة،

المرأةِ المُخاتِلة،

المتقلبةِ كرياحٍ سوداء...

مورغان أورتاغوس.

أُعجِبَ الشيطانُ

بتفكيرها المظلم،

وباقتراحٍ لا يليقُ

إلا بعقلٍ مُسكونٍ

بالشرّ والعداوة،

اقتراحٍ وجّههتْهُ نحو العدوّ

للاعتداء على لحظةِ وداعٍ

مهيبةٍ

لرجلٍ له مكانته

في وجدانِ كثيرين.

أُعجِبَ بها الشيطانُ

كثيراً...

حتى الذهول.

بيان أدبي سياسي

ما زال العدوان ينهش غزّة
وجنوب لبنان الأبي،
لا يترك حجراً إلّا هدّمه،
ولا بيتاً إلّا حاصر روحه،
ولا شجرة زيتون
إلّا عرّاها من فصولها،
ونهب أوراقها وجذوعها،
كأنّ في ترابها
ذاكرةً يخافونها.

لم تسلم منهم المزارع،
ولا المواشي،
ولا الدواجن،
ولا حتى ما تبقّى
من رائحة الحياة.

أيُّ عقلٍ ذاك
الذي يرى في الخراب انتصاراً؟
أيّ قلبٍ هذا
الذي لا يرقّ لصرخة طفل
ولا لظلّ عجوز
ينتظر خبز الصباح؟

وقد صدق الله تعالى

حين وصف قسوة القلوب

في كتابه الكريم،

فقال في سورة المائدة:

"كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"،

وقال في سورة البقرة:

"ثم قست قلوبكم من بعد ذلك

فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة".

نسأل المولى عزّ وجل

أن يرفع البلاء عن المظلومين،

ويحقّ الحقّ،

وينصر الصابرين،

ويكشف زيف الظالمين،

آمين يا ربّ العالمين.

---20

واقع الشباب اللبناني

بات واقع الشباب اللبناني اليوم،

في وطنهم العزيز لبنان،

واقعاً صعباً ومعقداً:

إما عاطل عن العمل،

أو باحثاً عنه بلا جدوى،

أو مضطرّاً للعيش بصعوبات ومعاناة.

إنها معاناة حقيقية،

حريّ بنا التوقف عندها ولو للحظة واحدة،

والسعي الجادّ

مع المسؤولين المعنيين في البلد،

للتخفيف منها،

وتغييرها إلى الأفضل،

لما فيه خير الوطن والمواطنين،

وخاصة الشباب والشابات على حد سواء.

21

الفارس اللبناني الشجاع

عندما سقط الفارس

اللبناني الشجاع

من على صهوة جواده الأبيض،

في مدينة جبيل الأثرية القديمة،

سقطت معه إمارة جبيل كلها:

القلعة،

المنديل الأصفر المطرز بالنياشين المذهّبة،

قناديل الزيت،

الرماح المسومة وغير المسومة،

الجواد، السيف، الترس، الخوذة...

باب القلعة،

الشبابيك،

النوافذ،

مفتاح القلعة،

وحتى بعض الحجارة الكبيرة...

تهاووا جميعاً،

واحداً تلو الآخر،

مثل حجارةٍ تتساقط

على رقعة شطرنج

تدحرجت فيها المعارك.

22

العدوّ الإسرائيلي

أخشى أن يحصّل العدوّ الإسرائيلي عبر المفاوضات المباشرة مع لبنان

ما لم يستطع تحصيله في السابق،

ولا سيما حين يكون المسدس الإسرائيلي موضوعاً على الطاولة،

ومصوّباً نحو رؤوس المفاوضين اللبنانيين،

تحت وقع حربٍ انتهت بهزيمةٍ مدوّية

يصعب تصديق فصولها.

أنا أرفض مبدأ التنازلات بلا هوادة،

وأؤيّد الخروج بأقلّ الخسائر الممكنة.

ولو كنتُ موكَّلاً بالتفاوض

بدلاً من السفير سيمون كرم،

لطرحتُ أمام الجانب الإسرائيلي

عناوين لا بدّ من تثبيتها:

أولها: وقف العدوان المتكرّر على لبنان.

ثانيها: الانسحاب الكامل من الأراضي

التي احتُلّت حديثاً جنوبيّ البلاد.

وثالثها: مبادلة الأسرى،

والعمل على هدنةٍ طويلة الأمد

تحفظ الحدّ الأدنى من الاستقرار.

ثمّ يأتي البحث في تنشيط العلاقات الاقتصادية،

على أن يكون سلاح حزب الله

تحت إمرة قيادة الجيش اللبناني،

تمهيداً لمرحلةٍ أكثر انتظاماً للدولة.

وبعد ذلك،

يُفتح النقاش مع الأشقاء العرب

حول التعويضات وإعادة الإعمار

للمتضررين من الحرب.

أنا هنا لا أتحدّث بصفتي سياسياً،

بل شاعراً يقدّم رؤيةً متخيّلة،

ربما قابلة للنقاش،

وربما لا بأس بها…

لكنها تظلّ محاولة للبحث عن مخرجٍ

أقلّ وجعاً للوطن.

---23

لا ضرر عليك

ً

لا ضرر عليك، عزيزي المواطن، إطلاقاً،

إذا استحميتَ بمياه مالحة،

أو طهوتَ بها،

أو غسلتَ ثيابك،

ولو أدى ذلك إلى تلف جميع مواسير السنكرية في منزلك،

أو أصابتك الحكة من أثر الملوحة على بشرتك،

أو تغيّرت ألوان ملابسك قليلاً.

فمياه الخدمة لدينا، بتكلفة ماء الذهب،

ربما مشبوكة على أشعة الشمس الذهبية،

أو بسعر الماس،

ليس بمقدورنا إطلاقاً كبلدية،

حكومة، أو جمهورية لبنانية،

ضخها إلى البيوت...

فبدلناها بماء البحر.

مياه البحر مطهّرة للجراثيم والحشرات،

وممتازة للتعقيم.

لا ضرر عليك إذا اهترأت غسالتك،

وتساقط شعرك،

وتلفت مواسير السنكرية في منزلك.

يمكنك الشرب منها إن أحببت،

ولو أدى ذلك إلى تلف كليتيك،

وصرت تغسل الكلى أسبوعياً، شهرياً، أو يومياً

في قسم غسيل الكلى بالمستشفى...

لا بأس عليك، عزيزي المواطن.

وباعتراف شركة مياه الدولة،

لا ضرر عليك، فمياه البحر ممتازة،

حتى لو انزلقت سمكة في مغطس الاستحمام،

أو عدة أسماك من كل الألوان.

فكافة المعنيين في بلدنا المسكين

غاطسون في سباتهم العميق،

علهم يستيقظون يوماً ما، ولو متأخراً،

فيعيدون إصلاح الوضع بالشكل الصحيح،

بما يليق ويتماشى مع مفهوم الدولة.

هكذا.

24

هبة القواص

أشعرُ اليوم أنّ قلبي

يدقُّ دقّاتٍ غيرَ منتظمةٍ أبداً؛

سريعةً... قويّةً...

تكادُ تُربكُ نبضي.

يقفز في صدري

كإيقاعٍ يتصاعدُ في قاعة

الكونسرفاتوار الوطني اللبناني،

تحت قيادةِ المرهفةِ الحسّ،

المايسترا هبة القواص.

25

قصر بعبدا

سأضعُ لمسـاتي الأخيرة
على تلك القصيدةِ الوطنيّةِ
الباهرةِ بامتياز،
قبل أن أدوّنها
في السجلِّ الذهبيّ
داخل رحابِ قصر بعبدا.

26

غرام وانتقام

فصلٌ أخيرٌ
من فصولِ الحبّ...
غرامٌ وانتقام.

كان الشعرُ يودّعُ حبيبته
للمرّةِ الأخيرة،
من على شاطئ جبيل،
تارِكًا قلبه يبحرُ
نحو قبرصَ... أو اليونان.

فصلٌ أخيرٌ
من فصول الهوى،
غرامٌ... وانتقام.

27

روح الفقيد الغالي

لقد جرى استثناءُ الشعر
من كلّ شيءٍ في المحلّة،
محلّةِ الولادةِ والمنشأ،
حتى من تلك الدعوةِ
إلى قراءةِ الفاتحةِ
عن روحِ الفقيدِ الغالي.

28

حمداً لله ربّ العالمين

حمداً لله ربِّ العالمين،
فقد أصبح لنا في العاصمةِ بيروت
حديقةٌ عامّةٌ
تحاكي الخيال...
ووجهَ الخيال.

فأبناءُ بيروت — طبعاً —
ليسوا بحاجةٍ إلى ماء،
ولا كهرباء،
ولا طبابة،
ولا دواء،
ولا مساكنَ لذوي الدخلِ المحدود،
ولا حياةٍ كريمة،
ولا رواتبَ محترمة،
ولا حتى أبسطِ مقوّمات العيش.

كلّ ما ينقصهم اليوم

هو تلك الحديقةُ الفخمة،

المفخَّمة،

— التي جاءت — ويا للمصادفة

في الوقتِ المناسب تماماً!

فشكراً لكلِّ من خطّط،

ومهندس،

وساهم،

وشارك في تنفيذها.

فما أسعدني أنا،

لو أنني عمدتُ إلى بناء سلسلةِ ملاعبَ

كرةِ قدمٍ

واسعةٍ، شاسعةٍ،

عديدةٍ ومتعدّدةٍ

في مدينتي،

فيما أبناؤها يتضوّرون جوعاً،

ويشكون العوزَ،

والفاقةَ،

والقلّة.

فما أسعدني!

يا لفرحتي التي تكاد لا تسعني!

أكرمْ وأنعِمْ

بهكذا مسؤولين...

كأنّهم من عالمٍ آخر،

وفي عالمٍ آخر،

وكلُّ عالمٍ مختلفٍ

عن سابقِه تماماً.

29

الفانوس المنحوس

عندما خرجَ الماردُ

من الفانوسِ السحريِّ

في لبنان،

وجدَ نفسَه منبوذاً

في العراء؛

لا مسكنٌ،

لا كهرباء،

لا ماء،

لا دواء،

لا غذاء،

ولا حتى رداء،

أو مركزٌ يأويه.

فشتمَ ذاك الفانوسَ

المنحوس،

وشتمَ الساعةَ النحس

التي خرجَ فيها منه.

---30

شفاه نسائها

من قبائلٍ

شربتْ شفاهُ نسائها،

وظنّتْها عسلاً مُصفّى،

كنتُ — أنا — حين رأيتُ

وجهَها الناعمَ الجميل،

أشهدُ المدنَ تكتبُ تاريخَها

بماءِ الورد،

وتؤرّخُ للعصافيرِ

أغاني الحبِّ

ومواويل العشق.

ولا لشهريار،

ولا لتاج الأميرات،

فلا شيء يسطعُ

سواكِ...

يا قمراً ناعماً،

يلوّحُ بالانتصارات،

ويبوحُ بأسرارِ الهوى،

ويفيضُ دفئاً،

ورقّةً،

وحناناً،

في مدينةٍ تنام...

ولا تنام.

الشاعر محمود الظاظا

إلى سموّ الأميرة ليونور دي بوربون

ملكةِ إسبانيا

الخاتمة

ها أنا أضع آخر الكلمات، لا لأنها النهاية، بل لأنها محطةٌ أخرى من مواسم لا تزال تعبرني وتعيد تشكيل روحي.
فالشعر، كما تعلّمتُ من هذا الديوان، ليس لحظة تُكتب، بل حياةٌ تُعاد قراءتها كلما مرّ فصلٌ جديد من فصول القلب.

إن كانت هذه القصائد قد بلغت قارئها، فذلك لأنها كُتبت بصدقٍ لا يعرف التزييف،
وإن لامست شيئاً في القلب، فذلك لأنّ المواسم التي تخترقنا جميعاً متشابهة،
وإن اختلفت رياحها وأمطارها.

أغلق هذا الديوان، وأعلم أن ما تبقّى في داخلي أكبر مما قيل،
وأن في القلب فصولاً أخرى تنتظر موعدها،
ستأتي... كما تفعل المواسم دائماً...
بلا استئذان.

مواسم تعبرني بلا استئذان

محمود سليمان الظاظا

شعر

مقدمة

في هذا الديوان، مواسم تعبرني بلا استئذان، أمدّ يديّ إلى تلك اللحظات التي فاجأتني مثل مطرٍ هابطٍ من غيمةٍ غريبة، وإلى تلك الرياح التي هزّت قلبي دون أن تمنحني وقتاً للاستعداد.

فأنا ابنُ المواسم التي مرّت عليّ، وتركت في داخلي أثراً لا يُمحى، وندبةً لا تُرى، وصوتاً لا يصمت.

هنا، تتداخل الفصول في روحي كما تتداخل القصائد في هذا الكتاب؛

ربيعٌ يفتح نوافذ الضوء، وصيفٌ يحرق ما تراكم في الذاكرة، وخريفٌ يعلّمني معنى السقوط، وشتاءٌ يدفن في صدري أسراراً لا تذوب.

لم أكتب هذه الصفحات لأروي ما جرى فقط، بل لأعيد ترتيب عالمي،

فالشعر عندي ليس زخرفاً لغوياً، بل اعترافٌ طويل، ومصالحةٌ مؤجلة، وصرخةٌ حين يضيق الصمت.

ولذلك، جئتكم بهذه القصائد كما هي:

عفوية، مشتعلة، مبلّلة بالأحلام، تحمل شيئاً مني وربما شيئاً منكم أيضاً.

هذا الديوان رحلةٌ في المواسم التي عبرتني…

وفي المواسم التي ما زالت تعبر.

_1

لأجلكِ وحدكِ

لأجلكِ وحدكِ،

يا سموّ الأميرةِ الحسناء،

ليونور دي بوربون،

ملكةَ إسبانيا.

أحببتُ الديارَ والأوطان،

وعشقتُ قهوةً عربيةً سمراء

تتيهُ بغيابكِ،

وتحلو بها السهرةُ إن حضرتِ.

لا لشهريار،

ولا لتاجِ الأميرات،

ولا للمسكِ المخبَّأ

في قواريرِ الزمنِ العتيق—

عندما تكونين أنتِ

أولى القصائدِ

وآخرَها.

2

بياضُ الثلج

صباحُ الخير،

عزيزتي…

سموَّ الأميرةِ الحسناء

ليونور دي بوربون،

ملكةَ إسبانيا.

أدركُ أنَّ الجيادَ

بلا براري،

ولا مواسم،

ولا ربيع…

وأنَّ نضارةَ وجهكِ الناعمِ الجميل

انتزعتْ من بياضِ الثلج نقاءَه،

ومن ماسِ القصيدةِ وهجَها،

ومن أغاني السنونو خفَّتَها،

ومن مطرِ المهرجانات فرحَه،

ومن ابتسامةِ الوردِ الجوريِّ حُمَّاه،

ومن عطرِ الياسمين رقَّتَه،

ومن طعمِ العسل حلاوتَه،

ومن رِقَّةِ الزنبق نقاءَه،

ومن بنفسجِ أيّار لونه ولغته.

وكتبت للعصافير

أغانيَ حبٍّ جديدة...

لكنَّ كلَّ ذلك

كان بين كفَّيْكِ الجميلتين،

أنتِ وحدكِ.

التوقيع: شاعر

محمود سليمان الظاظا

_3

معزوفة الشعر

حين عزفَ الشعرُ

آخرَ معزوفتِه على المسرح،

كانت موسيقاه الأخيرة:

أنتِ...

ثم أنتِ...

ثم أنتِ...

ثم أنتِ.

4

لحن الحياة

حسناً...

مجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا...

بيروتُ تعزفُ

لحنَ الحياةِ

من جديد،

وبقلبٍ مفعَمٍ بالحياةِ

والأمل...

مجدّدًا،

ومجدّدًا،

ومجدّدًا...

5

خيانةٌ وقتْلٌ

خانوك... فقتلوك.

يا سماحةَ الأمين،

يا من كنتَ مخلصًا

لأرضِك،

لشعبِك،

في العامِ السابق...

عامُ الخذلان،

عامُ الغدر.

يا شيخَ الرجاء،

يا من حملتَ الراية،

أنتَ...

ضحيةُ خيانةٍ

وقتلٍ.

—6

عبدُ المال

صدقَ النبيُّ محمدٌ

صلى الله عليه وسلم،

حين قال:

تعسَ عبدُ المال،

تعسَ عبدُ الدرهم،

تعسَ عبدُ الدينار.

فما هلكتِ القلوبُ

إلا حين استعبَدَها الذهب،

ولا ضلَّتِ النفوسُ

إلا حين اتّخذت المالَ إلهًا.

7

حامات

في حامات،

وُلدتْ قصيدةٌ لبنانيةٌ

عشوائيةُ الملامح،

تفلتتْ من بين أصابع الريح،

واخترقت البحرَ

الأبيضَ المتوسّط،

لتَرْسو — بلا ميعاد —

على شاطئِ جزيرةِ قبرص.

عشوائيةٌ…

بكل ما للكلمةِ

من معنى.

8

سماء زغرتا

هذه القصيدةُ

عنيفةٌ… عشوائية،

حلّقت في سماءِ زغرتا،

تشقُّ الريحَ

كطائرٍ جموح،

ثم مضت...

حتى استقرّت

في الجزرِ اليونانية،

عنيفةً...

عشوائيةً

للغاية.

9

أكثر من ذلك

لا تتوقع منها أكثر من ذلك،

كل ما في الأمر،

أنها قصيدة حب

موجهة إلى قائدة إيقاع

الموسيقى الروسية،

وليست قاعدة صواريخ

تطلق من القنطاري

إلى الجليل الأعلى،

هكذا ببساطة.

10

جار مزعج

قد تكره المنزل الذي تسكنه،

المبنى،

الحي،

وحتى الشارع بأكمله،

كل ذلك...

لأجل جار مزعج

لا يطاق بتاتًا.

11

جمالُها الإسبانيُّ النبيل

كان يعرّي الماسَ من تيجانِه،

ويكتبُ للعصافيرِ

أغانيَ الحبِّ الأولى.

قمرُ الشوقِ

محطّةٌ أخرى للهوى،

تتعثرُ عندَها

دقّاتُ القلب،

ويورقُ الرخامُ

عناقيدَ مواسمَ

تتدلى في حضرةٍ فاتنة.

قمرٌ يَكْحَلُ الليلَ

لعينيها الجميلتين،

ويضعُ قبلتَهُ

الخجولة

على خدّيها المتورّدين

مثلَ التفّاح...

ثم يرحل.

الانتكاسات الكبرى

سؤالٌ يلازمني دائماً،

كشاعرٍ لبنانيٍّ يتأمّل تاريخ هذا الوطن:

عندما تأسّس لبنان...

على أيّ أساسٍ تأسّس؟

فمنذ اللحظة الأولى،

والبلد بلا ماءٍ ولا كهرباء،

بلا خدماتٍ صحيّة،

بلا أمنٍ أو أمان،

وبلا شبكاتِ صرفٍ صحيّ محترمة.

كلّما هطل المطر،

تطفح الشوارع بمياه الصرف الصحي،

تجتاح المنازل،

تغرق السيارات،

تتسلّل إلى المحال التجارية،

وربما تدخل بعض المؤسسات

العامة والخاصّة...

كأننا نغرق في كلّ شتاء من جديد.

لا شكّ أنّ لبنان تعرّض

لانتكاساتٍ كبرى،

من الحرب الأهليّة

التي أنهكت روحه،

وتجاوزت خسائرُها الاقتصاديّة

المئتي مليار دولار – كما قرأتُ –

إلى انتكاساتٍ تلتها،

كاغتيال الرئيس الشهيد

رفيق الحريري عام 2005،

وحرب تموز 2006،

وغيرها من الضربات

التي أرهقت الاقتصاد

وأضعفت بنية الدولة.

لكن...

إن كنّا اليوم نمتلكُ دولةً فاعلة –

كما يقال –

فقد آن الأوان

للشروع فوراً في معالجة

الملفّات الأساسية للحياة:

الماء، الكهرباء،

الخدمات،

السكن،

والبنى التحتيّة.

آن الأوان

لنتخلّص تدريجياً من هذه الأزمات،

حتّى نتجاوزها بالكامل،

خصوصاً ونحن نقف على عتبة

عامٍ جديد...

2026.

هكذا أرى الأمر.

13

عاصفةٌ رمليةٌ صفراء

هوجاء،

تجثمُ على صدرِ القصيدة،

فتهوي المفردات

وتتبعثرُ الحروف،

وتتناثرُ المعاني

والألفاظُ والكلمات،

بل تتطايرُ الجُملُ

والنقاطُ والفواصل...

كأنها ريحٌ شرقيةٌ

تكنسُ اللغةَ من دفاترها،

وتقذفُها إلى مدنٍ بعيدة،

وقاراتٍ مجهولة،

وإلى جهاتٍ

لم يكتشفها العالمُ بعد.

14

صرخةُ احتجاجٍ مدوّية

كان يرفعها بعضُ أبناءِ بلادِ جبيل

في وجهِ رجالِ الإقطاعِ الجشعين،

والحكّامِ الجائرين،

وبعضِ رجالِ الدينِ

الذين غلبَ عليهم التسييسُ والهوى.

صرخةٌ لا يزالُ صداها

يثقبُ أذنَ الحارة،

كلما غرقَ الجبيليّون في النوم،

كأنها تذكيرٌ دائمٌ

بوجعٍ لم يُشفَ بعد،

وبحقٍّ لم يُستردّ.

15

من المحيط إلى الخليج

هو الشعارُ الذي ترفعه

إحدى قصائدي المغامِرة

في هذه اللحظة،

قصيدةٌ تمتدُّ

بجسارةِ المسافةِ كلّها،

وتختبرُ اتّساعَ اللغة

ورحابةَ الأرض

في آنٍ واحد.

16

الشيخ بيار الجميّل

عندما كنتُ فتى صغيراً،

في الثامنة أو التاسعة من عمري،

كنا نعبر أحياناً بالسيارة

من المنطقة الغربية كما كانوا يسمّونها

أيام الحرب الأهلية،

إلى المنطقة الشرقية،

أو بالعكس.

وأذكر جيداً تلك العبورَاتِ الليلية،

وعندما كنّا نمرّ عند جسر الفيات

قادمين من الغرب باتجاه الشرق،

كانت تلوح لي صورةٌ ضخمة،

بورتريه طويل يمتدّ

على ارتفاع مبنى كامل.

رجلٌ متقدّم في السن،

ببدلة رسمية وربطة عنق،

وجهٌ طويل،

ونظرةٌ ثاقبة تشقّ العتمة.

كنت أحدّق إليه،

وأنا طفل لا يعرف اسمه،

ولا منصبه،

ولا سبب وجود صورته

على ذلك المبنى الشاهق،

ولا ما الفائدة من رفعها هناك.

ومع مرور الزمن،

وحين كبرت قليلاً،

عرفت أن ذلك الرجل

هو الشيخ بيار الجميّل.

لكنّ الصورة بقيت،

حتى اليوم،

محفورةً في مخيّلتي،

وفي عقلي الطفوليّ القديم،

ربما لأنها كانت شاهدةً

على أكثر المعارك دموية

بين المسلمين والمسيحيين آنذاك،

في سنوات الثمانينات…

بين 1982 و1985.

هكذا بقيت…

صورةٌ لا تُمحى.

17

ابنةُ يومِها؟

لا…

فهذه القصيدةُ ليست ابنةَ يومِها،

بل شاهدةٌ قديمةٌ

على سقوطِ روما

حجراً فوقَ حجر،

وعلى زمنٍ تهشّم

بين سطورها.

18

مورغان أورتاغوس

أُعجِبَ الشيطانُ كثيراً،

وبدهشةٍ لا تُصدَّق،

باقتراحِ تلك الحرباءِ السامّة،

المرأةِ المُخاتِلة،

المتقلبةِ كرياحٍ سوداء...

مورغان أورتاغوس.

أُعجِبَ الشيطانُ

بتفكيرها المظلم،

وباقتراحٍ لا يليقُ

إلا بعقلٍ مُسكونٍ

بالشرّ والعداوة،

اقتراحٍ وجّههتْهُ نحو العدوّ

للاعتداء على لحظةِ وداعٍ

مهيبةٍ

لرجلٍ له مكانته

في وجدانِ كثيرين.

أُعجِبَ بها الشيطانُ

كثيراً...

حتى الذهول.

19

بيان أدبي سياسي

ما زال العدوان ينهش غزّة

وجنوب لبنان الأبي،

لا يترك حجراً إلّا هدّمه،

ولا بيتاً إلّا حاصر روحه،

ولا شجرة زيتون

إلّا عرّاها من فصولها،

ونهب أوراقها وجذوعها،

كأنّ في ترابها

ذاكرةً يخافونها.

لم تسلم منهم المزارع،

ولا المواشي،

ولا الدواجن،

ولا حتى ما تبقّى

من رائحة الحياة.

أيُّ عقلٍ ذاك

الذي يرى في الخراب انتصاراً؟

أيّ قلبٍ هذا

الذي لا يرقّ لصرخة طفل

ولا لظلّ عجوز

ينتظر خبز الصباح؟

وقد صدق الله تعالى

حين وصف قسوة القلوب

في كتابه الكريم،

فقال في سورة المائدة:

"كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون"،

وقال في سورة البقرة:

"ثم قست قلوبكم من بعد ذلك

فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة".

نسأل المولى عزّ وجل

أن يرفع البلاء عن المظلومين،

ويحقّ الحقّ،

وينصر الصابرين،

ويكشف زيف الظالمين،

آمين يا ربّ العالمين.

---20

واقع الشباب اللبناني

بات واقع الشباب اللبناني اليوم،

في وطنهم العزيز لبنان،

واقعاً صعباً ومعقداً:

إما عاطل عن العمل،

أو باحثاً عنه بلا جدوى،

أو مضطرّاً للعيش بصعوبات ومعاناة.

إنها معاناة حقيقية،

حريّ بنا التوقف عندها ولو للحظة واحدة،

والسعي الجادّ

مع المسؤولين المعنيين في البلد،

للتخفيف منها،

وتغييرها إلى الأفضل،

لما فيه خير الوطن والمواطنين،

وخاصة الشباب والشابات على حد سواء.

21

الفارس اللبناني الشجاع

عندما سقط الفارس

اللبناني الشجاع

من على صهوة جواده الأبيض،

في مدينة جبيل الأثرية القديمة،

سقطت معه إمارة جبيل كلها:

القلعة،

المنديل الأصفر المطرز بالنياشين المذهّبة،

قناديل الزيت،

الرماح المسومة وغير المسومة،

الجواد، السيف، الترس، الخوذة…

باب القلعة،

الشبابيك،

النوافذ،

مفتاح القلعة،

وحتى بعض الحجارة الكبيرة…

تهاووا جميعاً،

واحداً تلو الآخر،

مثل حجارةٍ تتساقط

على رقعة شطرنج

تدحرجت فيها المعارك.

22

العدوّ الإسرائيلي

أخشى أن يحصّل العدوّ الإسرائيلي عبر المفاوضات المباشرة مع لبنان

ما لم يستطع تحصيله في السابق،

ولا سيما حين يكون المسدس الإسرائيلي موضوعاً على الطاولة،

ومصوّباً نحو رؤوس المفاوضين اللبنانيين،

تحت وقع حربٍ انتهت بهزيمةٍ مدوّية

يصعب تصديق فصولها.

أنا أرفض مبدأ التنازلات بلا هوادة،

وأؤيّد الخروج بأقلّ الخسائر الممكنة.

ولو كنتُ موكَّلاً بالتفاوض

بدلاً من السفير سيمون كرم،

لطرحتُ أمام الجانب الإسرائيلي

عناوين لا بدّ من تثبيتها:

أولها: وقف العدوان المتكرّر على لبنان.

ثانيها: الانسحاب الكامل من الأراضي

التي احتُلّت حديثاً جنوبيّ البلاد.

وثالثها: مبادلة الأسرى،

والعمل على هدنةٍ طويلة الأمد

تحفظ الحدّ الأدنى من الاستقرار.

ثمّ يأتي البحث في تنشيط العلاقات الاقتصادية،

على أن يكون سلاح حزب الله

تحت إمرة قيادة الجيش اللبناني،

تمهيداً لمرحلةٍ أكثر انتظاماً للدولة.

وبعد ذلك،

يُفتح النقاش مع الأشقاء العرب

حول التعويضات وإعادة الإعمار

للمتضررين من الحرب.

أنا هنا لا أتحدّث بصفتي سياسياً،

بل شاعراً يقدّم رؤيةً متخيّلة،

ربما قابلة للنقاش،

وربما لا بأس بها...

لكنها تظلّ محاولة للبحث عن مخرجٍ

أقلّ وجعاً للوطن.

23---

لا ضرر عليك

لا ضرر عليك، عزيزي المواطن، إطلاقاً،

إذا استحميتَ بمياه مالحة،

أو طهوتَ بها،

أو غسلتَ ثيابك،

ولو أدى ذلك إلى تلف جميع مواسير السنكرية في منزلك،

أو أصابتك الحكة من أثر الملوحة على بشرتك،

أو تغيّرت ألوان ملابسك قليلاً.

فمياه الخدمة لدينا، بتكلفة ماء الذهب،
ربما مشبوكة على أشعة الشمس الذهبية،
أو بسعر الماس،
ليس بمقدورنا إطلاقاً كبلدية،
حكومة، أو جمهورية لبنانية،
ضخها إلى البيوت...
فبدلناها بماء البحر.

مياه البحر مطهّرة للجراثيم والحشرات،
وممتازة للتعقيم.
لا ضرر عليك إذا اهترأت غسالتك،
وتساقط شعرك،
وتلفت مواسير السنكرية في منزلك.
يمكنك الشرب منها إن أحببت،
ولو أدى ذلك إلى تلف كليتيك،
وصرت تغسل الكلى أسبوعياً، شهرياً، أو يومياً
في قسم غسيل الكلى بالمستشفى...
لا بأس عليك، عزيزي المواطن.

وباعتراف شركة مياه الدولة،
لا ضرر عليك، فمياه البحر ممتازة،
حتى لو انزلقت سمكة في مغطس الاستحمام،
أو عدة أسماك من كل الألوان.

فكافة المعنيين في بلدنا المسكين

غاطسون في سباتهم العميق،

علهم يستيقظون يوماً ما، ولو متأخراً،

فيعيدون إصلاح الوضع بالشكل الصحيح،

بما يليق ويتماشى مع مفهوم الدولة.

هكذا.

24

هبة القواص

أشعرُ اليوم أنّ قلبي

يدقُّ دقّاتٍ غيرَ منتظمةٍ أبداً؛

سريعةً... قويّةً...

تكادُ تُربكُ نبضي.

يقفز في صدري

كإيقاعٍ يتصاعدُ في قاعة

الكونسرفاتوار الوطني اللبناني،

تحت قيادةِ المرهفةِ الحسّ،

المايسترا هبة القواص.

25

قصر بعبدا

سأضعُ لمسـاتي الأخيرة

على تلك القصيدةِ الوطنيّةِ

الباهرةِ بامتياز،

قبل أن أدوّنها

في السجلِّ الذهبيّ

داخل رحابِ قصر بعبدا.

26

غرام وانتقام

فصلٌ أخيرٌ

من فصولِ الحبّ...

غرامٌ وانتقام.

كان الشعرُ يودّعُ حبيبته

للمرّةِ الأخيرة،

من على شاطئ جبيل،

تارِكًا قلبه يبحرُ

نحو قبرصَ... أو اليونان.

فصلٌ أخيرٌ

من فصول الهوى،

غرامٌ... وانتقام.

27

روح الفقيد الغالي

لقد جرى استثناءُ الشعر

من كلّ شيءٍ في المحلّة،

محلّةِ الولادةِ والمنشأ،

حتى من تلك الدعوةِ

إلى قراءةِ الفاتحةِ

عن روحِ الفقيدِ الغالي.

28

حمداً لله ربّ العالمين

حمداً لله ربِّ العالمين،

فقد أصبح لنا في العاصمةِ بيروت

حديقةٌ عامّةٌ

تحاكي الخيال…

ووجهَ الخيال.

فأبناءُ بيروت — طبعاً —

ليسوا بحاجةٍ إلى ماء،

ولا كهرباء،

ولا طبابة،

ولا دواء،

ولا مساكنَ لذوي الدخلِ المحدود،

ولا حياةٍ كريمة،

ولا رواتبَ محترمة،

ولا حتى أبسطِ مقوّمات العيش.

كلّ ما ينقصهم اليوم

هو تلك الحديقةُ الفخمة،

المفخَّمة،

التي جاءت — ويا للمصادفة —

في الوقتِ المناسب تماماً!

فشكراً لكلِّ من خطّط،

ومهندس،

وساهم،

وشارك في تنفيذها.

فما أسعدني أنا،

لو أنني عمدتُ إلى بناء سلسلةِ ملاعبَ

كرةِ قدمٍ

واسعةٍ، شاسعةٍ،

عديدةٍ ومتعدّدةٍ

في مدينتي،

فيما أبناؤها يتضوّرون جوعاً،

ويشكون العوزَ،

والفاقةَ،

والقلّة.

فما أسعدني!

يا لفرحتي التي تكاد لا تسعني!

أكرمْ وأنعِمْ

بهكذا مسؤولين...

كأنّهم من عالمٍ آخر،

وفي عالمٍ آخر،

وكلُّ عالمٍ مختلفٍ

عن سابقِه تماماً.

29

الفانوس المنحوس

عندما خرجَ الماردُ
من الفانوسِ السحريِّ
في لبنان،
وجدَ نفسَه منبوذاً
في العراء؛
لا مسكنٌ،
لا كهرباء،
لا ماء،
لا دواء،
لا غذاء،
ولا حتى رداء،
أو مركزٌ يأويه.

فشتمَ ذاك الفانوسَ
المنحوس،
وشتمَ الساعةَ النحس
التي خرجَ فيها منه.

---30

شفاه نسائها

من قبائلٍ
شربتْ شفاهُ نسائها،

وظنّتْها عسلاً مُصفّى،

كنتُ — أنا — حين رأيتُ

وجهَها الناعمَ الجميل،

أشهدُ المدنَ تكتبُ تاريخَها

بماءِ الورد،

وتؤرّخُ للعصافيرِ

أغاني الحبِّ

ومواويل العشق.

ولا لشهريار،

ولا لتاج الأميرات،

فلا شيء يسطعُ

سواكِ...

يا قمراً ناعماً،

يلوّحُ بالانتصارات،

ويبوحُ بأسرارِ الهوى،

ويفيضُ دفئاً،

ورقّةً،

وحناناً،

في مدينةٍ تنام...

ولا تنام.

الشاعر محمود الظاظا

إلى سموّ الأميرة ليونور دي بوربون

ملكةِ إسبانيا

الخاتمة

ها أنا أضع آخر الكلمات، لا لأنها النهاية، بل لأنها محطةٌ أخرى من مواسم لا تزال تعبرني وتعيد تشكيل روحي.
فالشعر، كما تعلّمتُ من هذا الديوان، ليس لحظة تُكتب، بل حياةٌ تُعاد قراءتها كلما مرّ فصلٌ جديد من فصول القلب.

إن كانت هذه القصائد قد بلغت قارئها، فذلك لأنها كُتبت بصدقٍ لا يعرف التزييف،
وإن لامست شيئاً في القلب، فذلك لأنّ المواسم التي تخترقنا جميعاً متشابهة،
وإن اختلفت رياحها وأمطارها.

أغلق هذا الديوان، وأعلم أن ما تبقّى في داخلي أكبر مما قيل،
وأن في القلب فصولاً أخرى تنتظر موعدها،
ستأتي… كما تفعل المواسم دائماً…
بلا استئذان.